من أسرار الإيجاز وصوره في القرآن

دراسة بلاغية

الدكتور أشرف حسن
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد
بجامعة المدينة العالمية

ملخص البحث:

الإيجاز والحذف، من أقسام البلاغة العربية الغنية بمدلولها القوية في معناها التي إن ملك ناصية توظيفها أحد حكم له بالبلاغة، حتى عد البعض: البلاغة الإيجاز.

"قال معاوية لصحار بن عياش العبدي وهو علامة نسابة: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز؛ قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ، قال له معاوية مستدركًا عبارته، ألا تبطئ ولا تخطئ، وذكر في موضع آخر قول ابن الأعرابي: عن المفضل الضبي: قلت لأعرابي منّا: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل"(١).

ومن خلال هذا البحث سأوضح معاني الحذف وأقسامه عند علماء البلاغة، ثم بعضًا من صور الحذف في آيات الذكر الحكيم، مسقطًا هذا الكلام على آيات من كتاب الله تعالى موضحًا ومبينًا ما فيها من أسرار بلاغية، تميز بها القرآن الكريم ربما لم يشر إليها بعض البلاغيين، وإن كانت منثورة بين المفسرين، كما سأناقش بعضًا من تلك الإلماحات المعجزة للإيجاز في نماذج الآيات التي سأوردها، مقسمًا البحث إلى مبحثين إيجاز بالقصر وإيجاز بالحذف.

الكلمات المفتاحية:

تعريف الإيجاز- إيجاز القصر- إيجاز الحذف- صور من إيجاز القصر- صور من إيجاز الحذف.

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو ابن بحر في كتابه البيان والتبيين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت لبنان: (١/ ٧٤-٧٥).

المقدمة

لا شك أن البلاغة العربية بأقسامها المعاني والبيان والبديع، تعد من أهم أسباب إيصال المعاني واختيار المتكلم لنوع من الكلام ليعبر به عما بداخله يدل دلالة لا شك فيها على مدى تملكه لناصية البيان وحسن التعبير، وإذا كان الإيجاز نوعًا من أنواع علم المعاني وهو قرين البلاغة وموضح معناها عند بعض البلاغيين كان لا بد أن نتناول هذا القسم ببحث مستقل، نوضح فيه مراتب الإيجاز وأنواعه عند البلاغيين، ثم نلقي الضوء على بعض الآيات القرآنية التي سجلت نوعي الإيجاز- بالقصر، والحذف- أبهى صورة وأجمل لفظ؛ لندلل على أن إعجاز القرآن الكريم، ناحية منه تعتمد على اختيار اللفظ ووضعه في موضعه ولاسيما إذا كان هذا اللفظ موجزًا.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في محاولة الوصول لجانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم، وهو جانب الإيجاز، وسيحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ماذا قال علماء البلاغة في الإيجاز؟

٢- هل وجد الحذف بأنواعه في القرآن الكريم؟

٣- ما أهم صور الإيجاز بالقصر في القرآن الكريم؟

٤- ما أهم صور الإيجاز بالحذف في القرآن الكريم؟

٥- بم امتاز الإيجاز في القرآن الكريم؟

أهداف البحث:

سيحاول البحث جاهدًا بيان العناصر الآتية:

١- قول علماء البلاغة في توضيحهم لتعريف الإيجاز وبيان أنواعه.

٢- إظهار صور الحذف الموجودة في القرآن الكريم.

٣- بيان أهم صور الإيجاز الحذف بالقصر في القرآن الكريم.

٤- بيان أهم صور الإيجاز بالقصر في القرآن الكريم.

٥- اظهار ما امتاز به القرآن الكريم في الإيجاز الذي هو من أسرار إعجازه.

الدراسات السابقة:

١- بلاغة الإيجاز في الشعرية العربية، رسالة ماجستير للطالب يوسف بديدة، إشراف: د. محمد منصوري، لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة الحاج لخضير- باتنه، بالجمهورية الجزائرية، يتفق هذا البحث مع بحثي في تناولهما للإيجاز، ويختلفان في أن بحثي يتناول الإيجاز في القرآن وبحثه يتناول الإيجاز في الشعر.

٢- الايجاز في النصف الأول من صحيح الإمام البخاري، دراسة بلاغية، للباحث خوجلي النور عبد الحميد، إشراف الدكتور/ حمد محمد عمار الحبر، السودان، جامعة أم درمان، كلية الدراسات العليا، كلية اللغة العربية قسم الأدب والنقد، لنيل درجة الماجستير، اتفق كل من هذا البحث وبحثي في دراسة الإيجاز واختلفا في أن بحثي تناول بعض آيات القرآن الكريم، ونقول البلاغيين وهذا البحث تناول النصف الأول من صحيح البخاري.

٣- ويعد كل بحث تناول علم المعاني من الدراسات السابقة لهذا البحث بصورة عامة.

منهج البحث:

يعالج هذا البحث مادته بواسطة المنهج الوصفي الاستنباطي(١) التحليلي، لبعض آي الذكر الحكيم.

---

(١) وهو طريقة لوصف الموضوع المراد دراسته من خلال منهجية علمية صحيحة وتصوير النتائج التي يتم التوصل إليها على أشكال رقمية معبرة يمكن تفسيرها [الجديلي، ربحي عبد القادر الجديلي، في كتابه، مناهج البحث العلمي: ص ٢٥.].

هيكل البحث:

وسينتظم البحث في: مقدمة وتمهيد، ومبحثين وخاتمة وأهم النتائج، وأهم المصادر والمراجع.

المقدمة: مشكلة البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وهيكل البحث.

وأما التمهيد: الإيجاز في القرآن الكريم.

والمبحث الأول: إيجاز القصر، وصوره في القرآن الكريم.

والمبحث الثاني: إيجاز الحذف، وصوره في القرآن الكريم.

والخاتمة: أهم النتائج وتوصيات البحث.

وثبت لأهم المصادر والمراجع.

التمهيد: الإيجاز في آيات القرآن

الإيجاز ويقال الحذف، ويقال له: الإشارة أيضًا. يقال: "أوجز في كلامه، إذا قصره، وكلام وحيز، أي: قصير، ومعناه في اصطلاح علماء البيان: هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، وأصدق مثال فيه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (١)، فهاتان الكلمتان قد جمعتا معاني الرسالة كلها، واشتملت على كليات النبوة، وأجزائها".(٢)

وهو من أعظم فصول البلاغة؛ لأنه يدل على مدى تمكن صاحب في ناصية البيان، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وما وجد منه في تلك الآيات لا يستطيع مفكر أو كاتب أن يغفله، ونسأل الله تعالى أن يجعل لنا من هذا النظر نصيبًا نؤجر عليه.

قال أصحاب الإيجاز: "الإيجاز: قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة، فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل، وهما من أعظم أدواء الكلام"(٣).

"وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟، فقال: الإيجاز، قيل: وما الإيجاز؟، قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد"(٤).

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) العلوي، السيد الإمام يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوي اليمني، في الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، مراجعة/محمد عبد السلام شاهين، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م. ص ٢٤٥.

(٣) طبانة، بدوي طبانة، في معجم البلاغة العربية: ص ٧١٢، طبعة دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الرابعة سنة ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

(٤) السابق: ص ٧١٢.

المبحث الأول: إيجاز القصر

في نوعي الإيجاز البلاغي تحدث الكثير من العلماء(١) والإيجاز قسمان: " إيجاز قصر، وإيجاز حذف"(٢).

أولًا: إيجاز القصر:

هو الوجيز بلفظه، فقال الشيخ بهاء الدين: "الكلام القليل إن كان بعضًا من الكلام أطول منه، فهو إيجاز حذف، وإن كان كلامًا يعطي معنى أطول منه، فهو إيجاز قصر. وقال بعضهم: إيجاز القصر هو تكثير المعنى بتقليل اللفظ"(٣).

قيل في التبيان: "الإيجاز الخالي من الحذف ثلاثة أقسام: أحدها: إيجاز القصر، وهو أن يقصر اللفظ على معناه، كقوله: " إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ"، إلى قوله: " وأْتُونِي مُسْلِمِينَ"(٤)، جمع في أحرف: العنوان، والكتاب، والحاجة؛ الثاني: إيجاز التقدير، وهو أن يقدر معنى زائدًا على المنطوق، ويسمى بالتضييق أيضًا وبه سماه بدر الدين بن مالك في المصباح؛ لأنه نقص من الكلام ما صار لفظه أضيق من قدر معناه، نحو: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾(٥)، أي: خطاياه غفرت، فهي له لا علية. الثالث: الإيجاز الجامع، وهو أن

---

(١) السيوطي، الحافظ جلال الدين السيوطي، في الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، بمصر: (٣/١٦٣، وما بعدها)، وعبد القاهر في دلائل الإعجاز، والجياني، محمد بن عبد الملك بن مالك الطائي الجياني أبو عبد الله في الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، تحقيق: د. محمد حسن عواد، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، باب الإيجاز، وابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، في المخصص، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، الطبعة الأولى، تحقيق خليل إبراهم جفال، ذكره في السفر الثالث عشر من كتاب نعوت الحديث، في الإيجاز والحسن والقبح والطول. وغيرهم من العلماء، وصاحب كتاب عروس الأفراح في شروح تلخيص المفتاح، وهو بهاء الدين أحمد بن على بن عبد الكافي السبكي الشافعي، أحد علماء القرن الثامن، توفي سنه ٧٧٣ هـ.

(٢) السيوطي، الحافظ جلال الدين السيوطي، في الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، بمصر: (٣/١٦٣).

(٣) السابق: (٣/١٦٤).

(٤) النمل: ٣٠، ٣١.

(٥) البقرة: ٢٧٥.

يحتوي اللفظ على معان متعددة نحو: ﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ﴾(١) الآية، فإن العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط المرمى به إلى جميع الواجبات في الاعتقاد والأخلاق والعبودية".(٢) (٣)، وفي الآية مقابلة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف فيه جماع كل خير، والنهي عن المنكر فيه نهي عن أي شر وبضدها تتمايز الأشياء.

إيجاز القصر في آيات القرآن:

إن المتتبع لآيات الذكر الحكيم -بشكل عام- يجد أن إيجاز القصر ظهر جليًا في أبهى حلله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾(٤).

إن الناظر إلى قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، يجد أن في الآية إيجازًا بالقصر؛ إذ أصل مادة الإحسان من الحسن، وهي عبارة تشمل الإحسان قولًا وطاعة وإرضاءً، وغير ذلك، ولم يعبر عنها بلفظ مفصل وإنما استخدم اللفظ الدال على عبارات ومعان كثيرة.

[و]" الحسن: عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحس. والحسنة: يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادها، وهما من الألفاظ المشتركة. والفرق بين الحُسْن والحَسَنة والحُسنَى: أن الحُسن يقال في الأعيان والأحداث وكذلك الحَسَنة إذا كانت وصفًا وإذا كانت اسمًا فمتعارف في الأحداث،

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) الإتقان: (٣/١٦٣-١٦٤). أدخل بعض العلماء الإشارة، والتضمين، الحصر. وغيرها.

(٣) الإتقان: (٣/١٦٣-١٨٠).

(٤) البقرة: ٨٣.

والحسنى لا يقال إلا في الأحداث دون الأعيان، والحُسْن أكثر ما يقال في تعارف العامة في المستحسن بالبصر، يقال:

رجل حسن وحُسَّانٌ وامرأةٌ حسناءُ وحُسَّانَةٌ"(١).

وقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٢).

في قوله: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ جمع بين الإنكار عليهم في قولهم على من لم يشهدوه، وتعليمهم ما جهلوه، وفيه من الإيجاز والإكمال على حد قول الزمخشري مالا ينكر.

"علم السامع موقع الإنكار، ثم يعلم أن قول أبناء يعقوب: "نعبد إلهك" لم يكن من دعوى اليهود حتى يدخل في حيز الإنكار؛ لأنهم لو ادعوا ذلك لم ينكر عليهم إذ هو عين المقصود من الخبر، و لم يكن داعٍ لجعل "أم" متصلة بتقدير محذوف قبلها تكون هي معادلة له، كأن يقدر: أكنتم غائبين إذ حضر يعقوب الموت أم شهداء؟، وأن الخطاب لليهود أو للمسلمين، والاستفهام للتقرير، ولا لجعل الخطاب في قوله: ﴿كنتم﴾ للمسلمين على معنى جعل الاستفهام للنفي المحض، أي: ما شهدتم احتضار يعقوب، أي: على حد ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ (٣)، وحد ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾(٤)، كما حاوله الزمخشري(٥) ومتابعوه، وإنما حداه إلى ذلك قياسه على غالب مواقع استعمال أمثال هذا التركيب مع أن موقعه هنا موقع غير معهود، وهو من الإيجاز والإكمال؛ إذ جمع الإنكار عليهم في التقول على من لم يشهدوه، وتعليمهم ما جهلوه، ولأجل التنبيه على هذا الجمع

---

(١) الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني" ت ٥٠٢ هـ"، المفردات في غريب القرآن، طبعة دار الخلق للتراث بمصر، بدون تأريخ: ص ١١٨، مادة: حسن.

(٢) البقرة: ١٣٣.

(٣) القصص: ٤٤.

(٤) آل عمران: ٤٤.

(٥) الزمخشري، محمود بن عمر الزمخشري، في: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة، ودار الكتب العلمية بيروت، الثالثة سنة ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م. رتبه وضبطه وصححه/مصطفى حسين أحمد: (١/١٩٣).

البديع أعيدت "إذ" في قوله: ﴿إذ قال لبنيه﴾؛ ليكون كالبدل من ﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾، فيكون مقصودًا بالحكم أيضًا"(١).

وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾"(٢).

الإيجاز في قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾، أي: إذا ما مات الأب المولود له، وورثه من لا يستحق الميراث، فعليه -أي: الوارث- رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وفيه من المعاني الدالة على إيجاز القصر الكثير.

"وقد علم من تسمية المفروض عليه الإنفاق والكسوة وارثًا أن الذي كان ذلك عليه مات، وهذا إيجاز، والمعنى: فإن مات المولود له فعلى وارثه مثل ما كان عليه فإن على الواقعة بعد حرف العطف هنا ظاهرة في أنها مثل على التي في المعطوف عليه، فالظاهر أن المراد وارث الأب، وتكون "أل" عوضًا عن المضاف إليه، كما هو الشأن في دخول "أل" على اسم غير معهود ولا مقصود جنسه"(٣). "وقيل: هو وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه، وقيل: المراد وارث الأب، وهو الصبي نفسه، وأنه إن مات أبوه وورثه وجبت عليه أجرة رضاعه في ماله إن كان له مال، فإن لم يكن له مال أجبرت الأم على إرضاعه"(٤).

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، طبعة دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون تأريخ: (٧٣١/١).

(٢) البقرة: ٢٣٣.

(٣) التحرير والتنوير: (٤٣٥/٢).

(٤) الكشاف: (٢٨٠/١).

تَعُولُوا﴾ (١).

"اشتمال هذه الآية على كلمة "اليتامى" يؤذن بمناسبتها للآية السابقة، بيد أنّ الأمر بنكاح النساء وعددهنّ في جواب شرط الخوف من عدم العدل في اليتامى ممّا خفي وجهُه على كثير من علماء سلف الأمة؛ إذ لا تظهر مناسبة، أي: ملازمة بين الشرط وجوابه، واعلم أنّ في الآية إيجازًا بديعًا؛ إذ أطلق فيها لفظ اليتامى في الشرط، وقوبل بلفظ النساء في الجزاء، فعلم السامع أنّ اليتامى هنا جمع يتيمة وهي صنف من اليتامى في قوله السابق: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ (٢). وعلم أنّ بين عدم القسط في يتامى النساء، وبين الأمر بنكاح النساء، ارتباطًا لا محالة وإلاّ لكان الشرط عبثًا. وبيانه: . هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها، فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهنّ إلاّ أن يقسطوا لهنّ. وعليه فيكون إيجاز لفظ الآية اعتدادًا بما فهمه الناس ممّا يعلمون من أحوالهم، وتكون قد جمعت إلى حكم حفظ حقوق اليتامى في أموالهم الموروثة حفظ حقوقهم في الأموال التي يستحقّها البنات اليتامى من مهور أمثالهنّ، وموعظة الرجال بأنّهم لمّا لم يجعلوا أواصر القرابة شافعة النساء اللاتي لا مرغّب فيهنّ لهم فيرغبون عن نكاحهنّ، فكذلك لا يجعلون القرابة سببًا للإجحاف بهنّ في مهورهنّ"(٣).

وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ (٤).

وعلم من قوله: "يرثها" أنّ الأخت إن توفّيت ولا ولد لها يرثها أخوها، والأخ هو الوارث في هذه الصورة، وهي عكس التي قبلها. فالتقدير: ويرث الأختَ امرؤ إن هلكت

---

(١) النساء: ٣.

(٢) النساء: ٢.

(٣) التحرير والتنوير: (٣/٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) النساء: ١٧٦.

أخته و لم يكن لها ولد. وعلم معنى الإخوة من قوله: ﴿وله أخت﴾، وهذا إيجاز بديع، ومَع غاية إيجازه فهو في غاية الوضوح، فلا يشكل بأنّ الأخت كانت وارثة لأخيها فكيف عاد عليها الضمير بأن يرثها أخوها الموروث، وتصير هي موروثة؛ لأنّ هذا لا يفرضه عالم بالعربية، وإنَّما يُتوهّم ذلك لو وقع الهلك وصفًا لامرئ، بأن قيل: المرء الهالك يرثه وارثه وهو يرث وارثه إن مَات وارثه قبله. والفرق بين الاستعمالين رشيق في العربية(١).

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

هذه الآية من أحسن القصص؛ إذ بلغت درجة الإعجاز والإيجاز في جمعها لقصة يوسف- عليه السلام- من تحقيق الرؤيا وما سبقها من أحداث.

وتلك الآية من الله تعالى على لسان يوسف- عليه السلام- فيها إيجاز وأشار بها: "إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجبّ، ومشاهدة مكر إخوته به، بقوله: "من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي"، فكلمة "بعد" اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره، وقد ألم به إجمالًا اقتصارًا على شكر النعمة، وإعراضًا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته فمرّ بها مرّ الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان؛ إذ ناطها بنزغ الشيطان"(٣).

و"بعد أن نزغ، أي: أفسد. وأسند النزغ إلى الشيطان؛ لأنه الموسوس. وذكر هـــذا القدر من أمر إخوته؛ لأنّ النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء كانت أحسن

---

(١) التحرير والتنوير: (٦٦/٤، ٦٧).

(٢) يوسف: ١٠٠.

(٣) التحرير والتنوير: (٥٧/٧).

موقعًا"(١).

وقوله: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (٢).

والمقصود من عبادة الشيطان اتباع أوامره من عبادة الأصنام وغيرها، عبر عنها بذلك إظهارًا لفسادها وضلالها. " فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم، ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ (٣)، ففي الكلام إيجاز؛ لأن معناه: لا تعبد الأصنام؛ لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين اتخذوها ووضعوها للناس، وعبادتها من وساوس الشيطان للذين سنّوا سنن عبادتها ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها، فمن عَبَد الأصنام فقد عبد الشيطان وكفى بذلك ضلالًا معلومًا"(٤).

وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (٥).

قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ إيجاز بديع، وذلك من حيث الاكتفاء بتعب الأم وبرها لذلك، وقياس تعب الأب عليه؛ ليفهم السامع أن الوصاية بهما معًا.

"والوهْن: . الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء. وانتصب "وَهْنًا" على الحال من "أمّه" مبالغة في ضعفها حتى كأنها نفس الوهْن، فإن حمل المرأة يقارنه التعب من ثقل الجنين في البطن، والضُعفُ من انعكاس دمها إلى تغذية الجنين. وجملة: "حملته أمه وهنًا على وهن" في موضع التعليل للوصاية بالوالدين؛ قصدًا لتأكيد تلك الوصاية؛ لأن تعليل

---

(١) أبي حيان، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، في البحر المحيط، طبعة دار الفكر بيروت سنة ١٤١٣هـ. طبعة دار الفكر بيروت لبنان سنة ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م: (٣٢٨/٦، ٣٢٩).

(٢) مريم: ٤٤.

(٣) الزخرف: ٢٣.

(٤) التحرير والتنوير: (١١٨/٨).

(٥) لقمان: ١٤.

الحكم يفيده تأكيدًا، ولأن في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبرّ بأمه ويستتبع البرّ بأبيه، وإنما وقع تعليل الوصاية بالوالدين بذكر أحوال خاصة بأحدهما، وهي الأم اكتفاء بأن تلك الحالة تقتضي الوصَاية بالأب أيضًا للقياس، فإن الأب يلاقي مشاقّ وتعبًا في القيام على الأم لتتمكن من الشغل بالطفل في مدة حضانته، ثم هو يتولى تربيته والذبّ عنه حتى يبلغ أشدّه؛ فلما ذكرت هنا الحالة التي تقتضي البر بالأم من الحمل والإرضاع كانت منبهة إلى ما للأب من حالة تقتضي البرَّ به على حساب ما تقتضيه تلك العلة في كليهما قوة وضعفًا؛ وحصل من هذا النظم البديع قضاء حق الإيجاز"(١).

وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (٢).

في قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ إيجاز بديع ونظم جميل، ومعنى أنيق فتأمل!.

"ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرًا لتُطابق مختلف مدد الحمل، إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة، وهو الغالب، قيل: كانوا إذا كان حمل المرأة تسعة أشهر -وهو الغالب- أرضعتْ المولود أحد وعشرين شهرًا، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهرًا، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرًا، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرًا، وذلك أقصى أمد الإرضاع، فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهرًا زائدًا في الإرضاع؛ لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالًا؛ ومن بديع هذا الطيّ في الآية: أنها صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر، ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر؛ لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل، فإن مشقة مدة الحمل أشدّ من مشقة الإرضاع، فلولا

---

(١) التحرير والتنوير: (١٠/١٥٧، ١٥٨).

(٢) الأحقاف: ١٥.

قصد الإيماء إلى هذه الدلالة، لكان التحديد بتسعة أشهر أجدرَ"(١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢).

قوله: ﴿لما قالوا﴾، إيجاز بديع؛ إذ المقصود بما قالوه من لفظ الظهار، وتحريم ما أحله الله من الاستمتاع بالزوجة وجعلها في التحريم كالأم. والمراد: ﴿بما قالوا﴾ ما قالوا بلفظ الظهار، وهو ما حَرموه على أنفسهم من الاستمتاع المفاد من لفظ: أنتِ عليّ كظهر أمي؛ لأن: أنت عليّ، في معنى: قربانك عليّ كمِثله من ظهر أمي. ففعل القول في هذا وأمثاله ناصبُ لمفرد لوقوعه في خلاف جملة مقولة، وإيثار التعبير عن المعنى الذي وقع التحْريم له، فلفظ الظهار بالموصول وصلته هذه إيجاز وتنزيه للكلام عن التصريح به، فالمعنى: ثم يرومون أن يرجعوا للاستمتاع بأزواجهم بعد أن حرموه على أنفسهم، وفهم من قوله: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ أن من لم يُرِد العود إلى امرأته لا يخلو حالُهُ: فإما أن يريد طلاقها فله أن يوقع علَيها طلاقًا آخر؛ لأن الله أبطل أن يكون الظهار طلاقًا، وإما أن لا يريد طلاقًا ولا عودًا، فهذا قد صار ممتنعًا من معاشرة زوجه مضِرًّا بها فله حكم الإِيلاء"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير: (١٢/٣٠).

(٢) المجادلة: ٣.

(٣) التحرير والتنوير: (١٣/١٧).

المبحث الثاني: الإيجاز بالحذف

القسم الثاني من قسمي الإيجاز: الحذف:

"ذكر أسبابه: منها: مجرد الاختصار والاحتراز عن البعث؛ لظهوره. ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء. ومنها: التفخيم والإعظام؛ لما فيه من الإبهام، قيل: إنما يحسن الحذف؛ لقوة الدلالة عليه، أو يقصد به تعديد أشياء، فيكون في تعدادها طول وسآمة، فيحذف ويكتفى بالحال عن ذكرها، ولهذا القصد يؤثر في المواضع التي يراد بها التعجب والتهويل على النفوس. ومنها: التخفيف؛ لكثرة دورانه في الكلام، كما في حذف حرف النداء. ومنها: شهرته، حتى يكون ذكره وعدمه سواء. ومنها: صيانته عن ذكره؛ تشريفًا. ومنها: صيانة اللسان عنه؛ تحقيرًا له. ومنها: قصد العموم. ومنها: رعاية الفاصلة"(١).

"ذكر شروطه: الأول: وجود دليل، إما: حالي، نحو: " قَالُواْ سَلاَمًا"(٢) ، أي: سلمنا سلامًا، أو: مقالي. ومن الأدلة: العقل، حيث يستحيل صحة الكلام عقلًا إلا بتقدير محذوف. قيل ابن هشام: وإنما يشترط الدليل فيما إذا كان المحذوف الجملة بأسرها، أو أحد ركنيها، أو يفيد معنى فيها هي مبنية عليه. أما الفضلة فلا يشترط لحذفها وجدان دليل، بل يشترط ألا يكون في حذفها ضرر معنوي أو صناعي، ويشترط في الدليل اللفظي أن يكون طبق المحذوف. الثاني: ألا يكون المحذوف كالجزء، ومن ثم لم يحذف الفاعل ولا نائبه، ولا اسم كان وأخواتها. الثالث: ألا يكون مؤكدًا؛ لأن الحذف مناف للتأكيد، إذ الحذف مبني على الاختصار، والتأكيد مبني على الطول. وأما حذف الشيء لدليل وتوكيده، فلا تنافي بينهما، لأن المحذوف لدليل كالثابت. الرابع: ألا يؤدي حذفه إلى اختصار المختصر، ومن ثم لم يحذف اسم الفعل؛ لأنه اختصار للفعل. الخامس: ألا يكون

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: (١٧١/٣- ١٧٣).

(٢) هود: ٦٩.

عاملًا ضعيفًا، فلا يحذف الجار والناصب للفعل والجازم إلا في مواضع قويت فيها الدلالة، وكثر فيها استعمال تلك العوامل. السادس: ألا يكون المحذوف عوضًا عن شيء، ومن ثم قال ابن مالك: إن حرف النداء ليس عوضًا من: أدعو؛ لإجازة العرب جزمه، ولذا أيضًا لم تحذف التاء من إقامة، واستقامة. السابع: ألا يؤدي حذفه إلى تهيئة العامل القوي"(١).

أنواع الحذف: "والمحذوف: إما جزء جملة، أو جملة، أو أكثر من جملة. الأول: إما مضاف، وإما موصوف، وإما صفة، وإما شرط، وإما جواب شرط، وهو ضربان: أحدهما: أن يحذف لمجرد الاختصار. وثانيهما: أن يحذف للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن. قال السكاكي رحمه الله: "ولهذا المعنى حذفت الصلة من قولهم: "جاء بعد اللتيا والتي" أي: المشار إليه بهما وهي المحنة، أو الشدائد بلغت شدتها وفظاعة شأنها مبلغًا يبهت الواصف معه، حتى لا يحير ببنت شفة، وإما: غير ذلك؛ والثاني: أعني ما يكون جملة، إما مسبب ذكر سببه، كقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾(٢). أو بالعكس، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾(٣). والثالث: كقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾(٤)؛ أي: فضربوه ببعضها، فيحيى، فقلنا: كذلك يحيى الله الموتى، أوجه الحذف: واعلم أن الحذف على وجهين: أحدهما: أن لا يقام شيء مقام المحذوف، والثاني: أن يقام مقامه ما يدل عليه(٥).

فائدته: للحذف فائدة ذكرها ابن القيم فقال: "فائدته زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد، وأكثر،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: (٣/١٧٤- ١٧٨).

(٢) الأنفال: ٨.

(٣) البقرة: ٥٤.

(٤) البقرة: ٧٣.

(٥) القزويني، الخطيب القزويني، في الإيضاح في علوم البلاغة: (١/ ١٧٩)، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، طبعة دار إحياء العلوم سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، بيروت.

وكان ذلك أحسن"(١).

صور من الإيجاز بالحذف في آيات القرآن

من دلائل إعجاز القران الكريم ما اشتمل عليه من آيات الإيجاز، وسأبين بعضًا منها في آيات القرآن، قال يحيى بن حمزة العلوي: "الإيجاز من أعظم قواعد البلاغة، ومن مهمات علومها، ومواقعه في القران أكثر من أن تحصى"(٢).

الإيجاز بحذف جزء جملة

الإيجاز بحذف حرف:

قال ابن جني في المحتسب: "حذف الحرف ليس بقياس؛ لأن الحروف إنما دخلت الكلام لضرب من الاختصار، فلو ذهبت تحذفها لكنت مختصرًا لها هي أيضًا، واختصار المختصر إجحاف"(٣).

وحرف الجر يكثر حذفه مع "أن"، وذلك لضرب من الإيجاز وإكثار المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ (٤).

"ولحذف حرف الجرّ بعد "ترغبون"-هنا- موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى، أي: ترغبون عن نكاح بعضهنّ، وفي نكاح بعض آخر، فإنّ فعْل رغب يتعدّى بحرف

---

(١) وينظر: الفوائد المشوق- المنسوب لابن القيم-: ص ٧١. وابن القيم: "٦٩١- ٧٥١ هـ"، هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعيد بن حريز الزرعي، ثم الدمشقي أبو عبد الله، شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية. ولد سنة ٦٩١ هـ، وتربى في بيت علم وفضل، وتلقى مبادئ العلوم عن أبيه، وأخذ العلم عن كثير من علماء عصره، ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد لازمه وتتلمذ[له] وقد شهد له العلماء بالتفوق في فقه الكتاب والسنة، ودقائق الاستنباط. وقد صنف له تصانيف كثيرة منها: تهذيب سنن أبي داود، والكلم الطيب، وأعلام الموقعين، وبدائع الفوائد؟ وتوفي-رحمه الله- ليلة الخميس ١٣ رجب سنة ٧٥١هـ، ودفن بدمشق بجوار والده في مقبرة "باب الصغير"، وتنظر ترجمته في مختصر زاد المعاد للإمام محمد بن عبد الوهاب طبعة دار الريان الطبعة الثانية سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م القاهرة.

(٢) الطراز: ص٢٤٥.

(٣) نسب هذا الرأي إلى ابن جني السيوطي في الإتقان: (٣/١٨٨).

(٤) النساء: ١٢٧.

"عن" للشيء الذي لا يُحَبّ، وبحرف "في" للشيء المحبوب، فإذا حذف حرف الجرّ احتمل المعنيين إن لم يكن بينهما تناف، وذلك قد شمله قوله في الآية المتقدّمة" ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا﴾ (١)(٢). وهذا ما كنت أقصده من الإيجاز المعجز بالاحتمال مع عدم وجود مناف لأي من المعنيين فتأمل!. وقيل: وترغبون أن تنكحوهن هذا اللفظ يحتمل الرغبة والنفرة، فالمعنى في الرغبة في أن تنكحوهن لمالهن أو لجمالهن، والنفرة وترغبون عن أن تنكحوهن؛ لقبحهن، فتمسكوهن رغبة في أموالهن"(٣).

وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا. يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٤).

قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ امتنان، و﴿أن تضلّوا﴾ تعليل لـ﴿يبيّنُ﴾ حذفت منه اللام، وحذفُ الجار مع "أن" شائع. والمقصود: التعليل بنفي الضلال لا لوقوعه؛ لأنّ البيان ينافي التضليل، فحُذفت لا النافية، وحذفها مَوجود في مواقع من كلامهم؛ إذا اتّضح المعنى؛ وهذا تأويل الكوفيين، وتأوّل البَصريون الآية. ونظائرهما على تقدير مضاف، يدلّ عليه السياق هو المفعول لأجله، أي: كراهة أن تضلّوا. وقد جعل بعض المفسّرين ﴿أن تضلّوا﴾ مفعولًا به لـ ﴿يبيّن﴾، وقال: المعنى: أنّ الله فيما بيّنه من الفرائض، قد بيّن لكم ضَلالكم الذي كنتم عليه في الجاهلية، وهذا بعيد؛ إذ ليس ما فعلوه في الجاهلية ضلالًا قبل مجيء الشريعة؛ لأنّ قسمة المال ليست من الأفعال المشتملة على صفة حسن وقبيح بيّنه، إلاّ إذا كان فيها حرمَان لمن هو حقيق بالمؤاساة والمبرّة، ولأنّ المصدر مع" أن" يتعيّن أن يكون بمعنى المستقبل، فكيف يصحّ أن يراد بـ ﴿أن تضلّوا﴾ ضلالًا قد

---

(١) النساء: ٣.

(٢) التحرير والتنوير: (٢١٣/٣).

(٣) البحر المحيط: (٨٤/٣).

(٤) النساء: ١٧٦.

مضى"(١).

الإيجاز بحذف حرف النداء:

"وقد جاء حذف حرف النداء في مواضع متعددة، ولمعرفة حذفه فيه- فيما أرى- ضابطين:

الأول: دلالة الحرف المحذوف على معنى مع بقاء هذا المعنى بعد الحذف.

والثاني: اعتبار الحرف محذوفًا بالقياس على موضع آخر مماثل ورد فيه دون حذف.

فمن النوع الأول: حذف حرف النداء" الياء" كثيرًا في القرآن الكريم؛ حيث لم يأتِ في القرآن أداة نداء سواه، ولأن العلماء صرحوا على أن أداة النداء إذا حذفت وجب أن يقدر المحذوف ياءً؛ لأنها أم الباب"(٢).

وقد ورد ذلك في آيات القرآن ومن ذلك قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"(٣).

"رب": منادى محذوف منه حرف النداء. وأصله "ربي"، حذفت ياء المتكلم تخفيفًا، وهو كثير في المنادى المضاف إلى الياء. وإعادة النداء في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ"؛ لإنشاء التحسر على ذلك﴾(٤).

[و] "سر حذف أداة النداء" الياء" مع "رب". المبالغة في تصوير قرب المنادى "رب"، حيث إن معناه: المربي والسيد والمالك. وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريبًا حاضرًا لا يحتاج في ندائه إلى وسائط(٥)، أما لماذا حذف "يا" مع "رب"؟، أن هذه الكلمة

---

(١) التحرير والتنوير: (٦٧/٤، ٦٨).

(٢) ابن هشام، عبدالله بن هشام الأنصاري، في مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: (٢٤٣/١)، وما بعدها، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة المكتبة العصرية، سنة(١٤١١ هـ)، وخصائص التعبير القرآني: (٧/٢).

(٣) إبراهيم: ٣٥، ٣٦.

(٤) التحرير والتنوير: (٢٣٨/٧، ٢٣٩).

(٥) د/ أحمد بدوي، في كتابه: من بلاغة القرآن: / ص ١٦٩.

"رب" أكثر استعمالًا من غيرها في الدعاء، فروعي فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع على الألسنة وأسهل في مجاري الحديث. ولعل السر في إيثار القرآن الكريم لحرف النداء" يا" دون غيره؛ لأن هذه الأداة تكون الوسيلة الطبيعية في النداء؛ إذ هي أكثرها استعمالًا عند الخاصة والعامة، ولأنها أم الباب، ولأنها أخف أحرف النداء في النطق؛ لأنها تبدو في خفة حركتها، كأنها صوت واحد؛ لانطلاق اللسان بمدها دون أن يستأنف عملًا. أما الأربع الأُخر، وهي الهمزة، وأيا، وهيا، وأي، فإن كلًا منها يبدأ بحروف الحلق، وهي أثقل الأصوات نطقًا"(١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٢)

"﴿والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا﴾، بتوفيقهم للطَّاعةِ وحيازة الفضائلِ، فإنَّ المؤمنَ إذا ساعده أهلُه في طاعةِ الله- عزَّ وجلَّ- وشاركوه فيها، يُسرُّ بهم قلبُه، وتقرُّ بهم عينُه لما يشاهدُه من مشايعتهم له في مناهجِ الدِّينِ، وتوقُّعِ لحوقِهم به في الجنَّة حسبما وعد بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بهمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ومِن: ابتدائيةٌ أو بيانيةٌ وقرئ "وذريتنا"، وتنكيرُ الأعينِ؛ لإرادة تنكيرِ القُرَّة تعظيمًا. وتقليلُها؛ لأنَّ المرادَ أعينُ المتَّقين ولا ريبَ في قلَّتِها نظرًا إلى غيرِها"(٣).

الإيجاز بحذف المبتدأ:

" أما حذفه، فإما: لمجرد الاختصار، والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر، وإما: لذلك مع ضيق المقام، وإما: لتخيل أن في تركه تعويلًا على الشهادة العقل، وفي ذكره تعويلًا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وكم بين الشهادتين".(٤)

---

(١) خصائص التعبير القرآني: (٢/٨).

(٢) الفرقان: ٧٤.

(٣) أبي السعود، في تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، طبعة دار الفكر: (٤/١٥٠، ١٥١).

(٤) الإيضاح: ص ٦٢ وما بعدها.

وقد ورد هذا الإيجاز في آيات القرآن، ومن ذلك قوله تعالي: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ (١).

قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، حذف للاختصار والإيجاز، ودليل الحذف مفهوم مما سبق، وهو ذلك الإرضاع لمن أراد أن يتم الرضاعة.

"فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ بما قبله؟ قلت: هو بيان لمن توجه إليه الحكم، كقوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ (٢)، لك: بيان للمهيت به، أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع"(٣).

"أي: فهو خبر مبتدأ محذوف، كما أشار إليه ، بتقدير هذا الحكمُ لِمن أراد. قيل: وقد يصرح بهذا المبتدأ في بعض التراكيب كقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ (٤) ومَا صْدَقُ "مَنْ" هنا من يهمه ذلك: وهو الأب والأم، ومن يقوم مقامهما من ولي الرضيع وحاضنه. والمعنى: أن هذا الحكم يستحقه من أراد إتمام الرضاعة، وأباه الآخر، فإن أرادا معاً عدم إتمام الرضاعة، فذلك معلوم من قوله: ﴿فإن أرادا فصالًا﴾"(٥).

قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ. مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٦).

حذف المبتدأ في هذه الآية اختصارًا في قوله: ﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾، وتقديره: المذكورون آباؤكم وأبناؤكم لا شك في ذلك.

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) يوسف: ٢٣.

(٣) الكشاف: (٢٧٨/١، ٢٧٩).

(٤) النساء: ٢٥.

(٥) التحرير والتنوير: (٤٣١/٢).

(٦) النساء: ١١.

[و]" ختم هذه الفرائض المتعلّقة بالأولاد والوالدين، وهي أصول الفرائض بقوله: ﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾" الآية، فهما إمّا مسند إليهما قُدّما للاهتمام، وليتمكّن الخبر في ذهن السامع؛ إذ يُلقي سمعه عند ذكر المسند إليهما بشراشره، وإمّا أن تجعلهما خبرين عن مبتدأ محذوف، هو المسند إليه، على طريقة الحذف المعبّر عنه عند علماء المعاني بمتابعة الاستعمال، وذلك عندما يتقدّم حديث عن شيء ثم يراد جمع الخبر، أي: المذكورون آباؤكم وأبناؤكم لا شكّ في ذلك"(١).

"هو في الآخرة لا يدرون أي الوالدين أرفع درجة عند الله ليشفع في ولده، وكذا الولد في والديه. وقيل: معناه في الدّنيا، أي: إذا اضطر إلى إنفاقهم للفاقة، وقيل: في الدنيا والآخرة، واللفظ يقتضي ذلك. وقيل: أقرب لكم نفعًا في الميراث والشفاعة، وقيل: أسرع موتًا، فيرثه الآخر، فاقسموا الميراث على ما بين لكم من يعلم النفع والمصلحة، فإنكم لا تدرون أنتم ذلك"(٢).

وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (٣).

حذف المبتدأ من قوله: ﴿فإخوانكم﴾، وذلك للإشارة إلى ضميرهم سابقًا، والتقدير: فهم إخوانكم في الدين ومواليكم وأولياؤكم فيه.

"وارتفاع "إخوانُكم" على الإخبار عن مبتدأ محذوف، هو ضمير الأدعياء، أي: فهم لا يَعْدُون أن يوصفوا بالإخوان في الإسلام إن لم يكونوا مواليَ أو يوصفوا بالموالي إن كانوا مواليَ بالحلف، أو بولاية العتاقة وهذا استقراء تام، والإخبار بأنهم إخوان وموال كناية عن الإرشاد إلى دعوتهم بأحد هذين الوجهين"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير: (٣/٢٦٢).

(٢) البحر المحيط: (١/٥٤٢).

(٣) الأحزاب: ٥.

(٤) التحرير والتنوير: (٧/٢٦٢).